السنن الإلهية في نهوض الحضارات وسقوطها ورؤيتها الاستشرافية في سور: (الأعراف، هود، الحجر - دراسة موضوعية)

The Divine Laws Governing the Rise and Fall of Civilizations and Their Forward-Looking Vision in Surahs: Al-A'raf, Hud, and Al-Hijr (An Objective Study)

م.م علي عزيز نعمه المعموري
Asst. Prof. Ali Aziz Nima Al-Mamouri
Imam AL_Kadim College _ Babel Departments

الكلمات المفتاحية :السنن الإلهية- نهوض الحضارات- سقوط الحضارات-الرؤية الاستشرافية-(سورة الأعراف- سورة هود - سورة الحجر)- القصص القرانية

Keywords :The Divine Laws ,Rise of Civilizations , Fall of Civilizations , Forward-Looking Vision , Surahs: Al-A'raf, Hud, & Al-Hijr , Quranic Narratives

الملخص :

السنن الإلهية تمثل القوانين الناظمة التي تحكم حركة التاريخ وتطور المجتمعات البشرية .من هذا المنظور، جاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على الأبعاد السننية التي تؤثر في قيام الحضارات وسقوطها، بالاعتماد على الرؤية المستقبلية التي تتجلى في سور الأعراف وهود والحجر .وتهدف الدراسة إلى تحويل المحتوى القصصي والوعظي لهذه السور المكية إلى إطار عام لقوانين ومحددات اجتماعية ذات طابع مستمر، مما يعزز الفهم المعرفي للقرآن الكريم في تفسير الظواهر التاريخية واستشراف مصير القوى العالمية المعاصرة

.ولتحقيق هذا الهدف، اتُبع المنهج الاستقرائي التحليلي ضمن إطار التفسير الموضوعي، حيث تم تتبع الآيات والمفاهيم المتعلقة بالحضارة والتمكين والإهلاك في السور قيد الدراسة .

وتركزت الدراسة على الإجابة عن السؤال الرئيس: كيف تقدم سور الأعراف وهود والحجر رؤية استشرافية لنهوض الأمم وانهيارها؟ وقد توصلت إلى أن تطور الحضارات وانحدارها ليس عملية عبثية أو عشوائية، بل يقوم على قوانين تاريخية واضحة تربط النتائج بالسلوك البشري .استمرار النهوض الحضاري يتطلب التمسك بالقيم الأخلاقية وحراكًا إصلاحيًا فعالًا، في حين أن الانهيار يرتبط جذريًا بانتشار الظلم، وترف طبقة النخب (الملأ)، والتعلق بالمظاهر المادية .وانتهت الدراسة إلى نتائج جوهرية، أبرزها أن سور الأعراف وهود والحجر قدّمت رؤية دقيقة لاستشراف المستقبل تتميز بتجاوز الطابع المادي البحت عبر ثلاثة قوانين كبرى .القانون الأول هو "سنة الاستدراج"، التي تفسر الازدهار المؤقت الذي يرافق الانحدار القيمي .القانون الثاني هو "سنة الأجل المضروب"، التي تشير إلى الحتمية الزمنية لانتهاء الحضارات .أما القانون الثالث فهو "سنة الاستبدال الكوني"، التي تؤكد أن التخلي عن شروط الاستخلاف وإقامة العدل يؤسس لتحول في مسؤوليات الأمم.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، بارئ الخلائق أجمعين، وباعث الأنبياء والمرسلين، ليكونوا شهداء على الأمم، ومقيمي القسط في العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعمران البشري، هادي الأمة ومخرجها من ظلمات الجهل إلى نور الحضارة، أبي القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين الذين جعلهم الله عدل الكتاب وأدلاء السنن..

أما بعد؛ فإن القرآن الكريم ليس مجرد كتاب هداية فردية تنعزل عن حركة الواقع المعاش، بل هو دستور كوني واجتماعي متكامل يضبط حركة التاريخ الإنساني، ويرسم مسارات الصعود والأفول للمجتمعات البشرية عبر منظومة دقيقة وصارمة تُعرف بـ "السنن الإلهية ."إن هذه السنن تمثل القوانين الموضوعية الثابتة والمطردة التي أودعها الله سبحانه وتعالى في المجتمعات، والتي تترتب عليها النتائج التاريخية ترتب المعلول على علته، دون محاباة أو مصادفة، مما يجعل التاريخ البشري مختبراً علمياً خاضعاً للسببية والعدالة الإلهية المطلقة.

وتأتي سور (الأعراف، هود، الحجر) في الخطاب القرآني المكي لتمثل وحدة سياقية وبنيوية فريدة، ركزت بشكل مكثف وعميق على عرض مَصارع الغابرين وجدلية النهوض والسقوط الحضاري؛ لتُبرز من خلالها كيف يبنى العمران على مرتكزات الإيمان والعدل والتقوى، وكيف ينهار وينهار معه الإنسان عندما تتفشى فيه أوبئة الظلم والبطر المادي والتكذيب بالحق

أولاً: أهمية الموضوع

إنّ دراسة التاريخ البشري من المنظور القرآني لا تنطلق من سرد الأحداث كوقائع معزولة أو مصادفات زمنية، بل تؤصل لرؤية كونية قائمة على "القانون" و"السببية". وتحتل "السنن الإلهية" (وهي القوانين الثابتة التي تحكم حركة المجتمعات والتاريخ) مكانة محورية في الفكر الإسلامي المعاصر، لا سيما في ظل التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية في محاولات نهوضها واستئناف دورها الحضاري.

وتكتسب هذه الدراسة أهميتها العلمية والعملية من خلال النقاط الآتية:

التأصيل المعرفي :تقديم قراءة سننية موضوعية تعتمد على الرصيد التفسيري لمدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، والتي تمتاز بربط النص القرآني بالواقع الإنساني والاجتماعي.

التكامل السياقي :دراسة ثلاث سور مكية متتالية في المصحف الشريف (الأعراف، هود، الحجر)، عُنيت بشكل مباشر بعرض مصارع الغابرين، ومناقشة جدلية التمكين والهلاك، مما يوفر وحدة موضوعية متكاملة لرصد حركة الحضارات.

البُعد الاستشرافي :تفعيل الدور الوظيفي للقرآن الكريم؛ فالسنن الإلهية ليست مجرد سجلات للماضي، بل هي أدوات علمية لاستشراف المستقبل وقراءة مصائر الحضارات المعاصرة بناءً على مقدماتها السلوكية والأخلاقية.

ثانياً: مشكلة البحث

تكمن مشكلة البحث في وجود فجوة معرفية بين التعاطي التبركي أو السردي التاريخي مع الآيات التي تتناول قصص الأنبياء والأمم السابقة في سور (الأعراف، هود، الحجر)، وبين تحويل هذه الآيات إلى "قوانين حضارية" قابلة للتطبيق والاستشراف. ويمكن صياغة المشكلة في السؤال الرئيس الآتي:

كيف صاغت سور (الأعراف، هود، الحجر) النظرية القرآنية في السنن الإلهية الحاكمة لنهوض الحضارات وسقوطها؟ وما هي معالم الرؤية الاستشرافية التي تقدمها هذه السور للمستقبل الإنساني؟

ويتفرع عن هذا السؤال عدة تساؤلات:

ثالثاً: أهداف البحث

يسعى هذا البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

1. ضبط المفاهيم والمصطلحات المتعلقة بالسنن والحضارة والاستشراف في ضوء الفكر التفسيري الشيعي الرصين.
2. الكشف عن الوحدة الموضوعية والروابط البيانية بين سور الأعراف وهود والحجر
3. استخراج المرتكزات الإيجابية (العقائدية والمادية) لقيام الحضارات واستقرارها من واقع الآيات المبحوثة.
4. رصد الأوبئة الحضارية والسنن الصارمة التي تؤدي إلى الانهيار والأفول
5. صياغة خارطة طريق استشرافية لاستئناف الدورة الحضارية الإسلامية بناءً على المفهوم القرآني لـ "أولي البقية"

رابعاً: منهج البحث

يعتمد البحث على المنهج التفسيري الموضوعي، وهو المنهج الذي يلاحق المصطلح أو القضية عبر الآيات والسور لتشكيل رؤية قرآنية متكاملة. كما يستعين الباحث بـ المنهج التحليلي الاجتماعي (السنني)

الفصل الأول: التأصيل المفهومي والسياقي للبحث

يستهدف هذا الفصل وضع ركائز معرفية صلبة للبحث عبر مسارين متكاملين :الأول مفاهيمي، ويُعنى بضبط المصطلحات الحاكمة للدراسة (السنن الإلهية، الحضارة، الرؤية الاستشرافية) وتحديد خصائصها ومقوماتها في الفكر الإسلامي الشيعي

والثاني سياقي وبنيوي، ويتناول ملاحقة الخيوط الناظمة والوحدة الموضوعية والخصائص الأسلوبية الموحدة التي تجمع بين سور (الأعراف، هود، الحجر)، مما يسمح بالانتقال من المعالجة التجزيئية للآيات إلى المعالجة الكلية المقاصدية..

المبحث الأول: تعريف مصطلحات البحث

المطلب الأول: السنن الإلهية والحضارة (المفهوم والخصائص)

ان التلازم المعرفي بين مفهومي "السنن الإلهية" و"الحضارة" في الفكر القرآني يمثل العلاقة بين "القانون الناظم" و"المجال التطبيقي". فالسنن الإلهية هي القوانين المحركة والموجهة، والحضارة هي الثمرة والمظهر العياني لمدى توافق المجتمع الإنساني مع هذه القوانين أو تصادمه معها.

أولاً: السنن الإلهية (المفهوم والخصائص الكونية)

1-الدلالة اللغوية والاصطلاحية

أ- **السنن لغةً** :مشتقة من الجذر اللغوي (س، ن، ن)، والسين والنون أصلٌ واحد مطرد يدل على جريان الشيء وإعداده في مسار تتابعي سهل. والسُّنَّةُ: السِّيرةُ، حَسَنَةً كانَتْ أَوْ قَبِيحَةً. وإذا وردت السنّة مضافة إلى الله تعالى في النص الشرعي، فالمقصود بها أحكامه وأوامره وسيرته في خلقه وجريان أفعاله في الأمم ([1])

ب- **السنن اصطلاحاً** :هي القوانين الوجوبية، والضوابط الكلية والأنظمة المطردة التي أودعها الله عز وجل في صلب المجتمعات البشرية وفي حركة التاريخ الإنساني، والتي تترتب عليها النتائج والمصائر ترتباً حتمياً مبنياً على قانون العلية والسببية ([2])

2-التأصيل التفسيري في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)

تتحرك فلسفة التاريخ والسنن في الرؤية التفسيرية الشيعية في مدار تنزيه الأفعال الإلهية عن العبثية والمصادفة من جهة، وتأكيد الإرادة الإنسانية الحرة من جهة أخرى؛ تفعيلاً لقاعدة "لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين ."([3])

يرى العلامة الطباطبائي أن السنّة الإلهية هي المجرى التكويني الحتمي الذي يعقب الفعل الإنساني الجماعي، حيث يقول:

"إن المجتمع الإنساني، بما هو مجتمع، له هوية مستقلة، وحياة وموت، وصعود وهبوط، وإن الصنع الإلهي أجرى الأحداث الاجتماعية على نظام العلية والمعلولية الصارم؛ فالله سبحانه لا يغير ما بقوم من نعم أو نقم جزافاً، بل يربط التغيير التكويني الخارجي بالتغيير النفسي والسلوكي الداخلي للمجتمع" ([4])

وهذا التأصيل يتناغم مع الأصول الحديثية المعصومية؛ فالإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) يضع القاعدة الذهبية لكافة العلوم الاجتماعية والطبيعية بقوله: «أَبَى اللَّهُ أَنْ يُجْرِيَ الْأُمُورَ إِلَّا بِأَسْبَابِهَا، فَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَباً» ([5]).

وبناءً عليه، تصبح دراسة حركة التاريخ وفق المنظور الشيعي دراسةً في "علم الأسباب والمسببات" وليست خاضعة لقوى غيبية عشوائية لا يمكن التنبؤ بها.

المطلب الثاني: الرؤية الاستشرافية في الفكر القرآني

يعيش العالم المعاصر حالة من التسارع المعرفي والتكنولوجي التي تجعل من "علم الاستشراف" ضرورة حتمية لإدارة الأزمات والتخطيط للمستقبل. وفي الوقت الذي تظن فيه بعض المدارس الغربية أن استشراف المستقبل وليد الحداثة، يكشف التأمل في النص القرآني عن منظومة استشرافية متكاملة سبقت النظريات الحديثة بقرون. إن الرؤية الاستشرافية في الفكر القرآني لا تنطلق من رجم بالغيب، بل تقوم على سنن كونية واجتماعية ثابتة، وربط محكم بين الماضي والحاضر لبناء مستقبل آمن للبشرية.

أولاً: مفهوم الاستشراف في المنظور القرآني

الاستشراف في اللغة مشتق من "شَرَفَ" وهو العلو، واستشرف الشيء أي رفع رأسه لينظر إليه من مكان عالٍ. ([6])

أما في الفكر القرآني، فيمكن تعريفه بأنه
"قراءة الحاضر في ضوء سنن الماضي للتنبؤ بمسارات المستقبل، بهدف اتخاذ تدابير وقائية أو تطويرية تعمر الأرض وتحقق الخلافة" ([7])

ويختلف الاستشراف القرآني عن التنبؤ الغيبي المحض؛ فالغيب المطلق يختص به الله سبحانه وتعالى، بينما "الاستشراف البشري القائم على الوحي" هو سنني يعتمد على رصد الأسباب والمسببات ([8]).

إن القرآن الكريم يدعو الإنسان إلى عدم الانغلاق في لحظته الراهنة، بل يدفعه للنظر العاقل نحو المستقبل، كما في قوله تعالى: ((وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)). ([9])

ثانياً: المرتكزات المعرفية للرؤية الاستشرافية القرآنية

تقوم الرؤية الاستشرافية في القرآن الكريم على عدة مرتكزات أساسية تمنحها السداد واليقين، ومن أبرزها:

1-ثبات السنن الإلهية :يقرر القرآن أن الكون والمجتمعات تسير وفق قوانين صارمة لا تحابي أحداً،حيث إن فهم هذه السنن يتيح للمسلم توقع النتائج المستقبلية لأي سلوك بشري، بناءً على قوله تعالى: ((وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا)) ([10])

2-الربط الزمني الثلاثي (الماضي، الحاضر، المستقبل) :لا ينظر القرآن إلى التاريخ كأحداث ميتة، بل كـ "مختبر سنني". فالقصص القرآني ليس للتسلية، وإنما هو أداة استشرافية؛ لأن المقدمات المتشابهة تؤدي حتماً إلى نتائج متشابهة ([11])

3-الاستخلاف والمسؤولية البشرية :إن الإنسان ليس ريشة في مهب الريح، بل هو فاعل أساسي في صناعة مستقبله. فالقرآن يربط التغيير المستقبلي بالإرادة البشرية وقال الله تعالى ((إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ))([12])

مما يمنح الاستشراف صبغة عملية تنموية ([13])

ثالثاً: مستويات الاستشراف في القرآن الكريم

تتعدد مستويات النظر المستقبلي في الفكر القرآني لتشمل ثلاثة أبعاد رئيسية:

1 .الاستشراف الغيبي الإعجازي (المنظور القريب)

وهو الإخبار عن أحداث مستقبلية وقعت بالفعل كما وصفها القرآن، وتعد شهادة صدق للمصدر الإلهي. ومن أشهر أمثلتها استشراف انتصار الروم على الفرس في بضع سنين بعد هزيمتهم الساحقة، وهو ما وثقته سورة الروم . ([14])

2.الاستشراف السنني الاجتماعي (المنظور المتوسط)

ويتعلق بمصير الأمور والحضارات بناءً على سلوكها الأخلاقي والاقتصادي. فالقرآن يستشرف سقوط الحضارات التي تتفشى فيها الظلم والترف والفساد، ويضع "مؤشرات إنذار مبكر" لحماية المجتمعات من الانهيار ([15])

3 .الاستشراف الأخروي (المنظور البعيد والمطلق)

هو الاستشراف الذي يتجاوز الحياة الدنيا ليرسم بدقة تفصيلية مسار البشرية بعد الموت (القيامة، الحساب، الجنة، والنار). هذا الاستشراف ليس ترفاً فكرياً، بل هو موجه سلوكي يضبط حركة الإنسان في الحاضر لضمان مستقبله الأبدي ([16])

رابعاً: النماذج التطبيقية للاستشراف في القرآن

يقدم القرآن الكريم نماذج عملية لكيفية إدارة المستقبل والأزمات، ولعل أبرزها:

الاستشراف التخطيطي الاقتصادي (رؤية يوسف الصديق عليه السلام :(تعتبر سورة يوسف "الوثيقة الاستشرافية الأولى" في تاريخ البشرية لإدارة الأزمات الاقتصادية. فقد فسر يوسف عليه السلام رؤيا الملك (سبع بقرات عجاف يأكلن سبعاً سماناً) ليس لمجرد التنبؤ، بل وضع خطة استراتيجية تقوم على: الإنتاج الكثيف، والادخار الذكي (فذروه في سنبله)، والترشيد الاستهلاكي ([17]). هذا النموذج يوضح كيف يتحول الاستشراف إلى خطة عمل تنفيذية تحمي الأمن الغذائي للأمة.

الاستشراف الوقائي وبناء القوة (رؤية ذي القرنين :(في قصة ذي القرنين، نجد استشرافاً للمخاطر الأمنية الخارجية (خطر يأجوج ومأجوج). ولم يقم الحل على معالجة مؤقتة، بل على استغلال الموارد وتطوير البنية التحتية الصلبة (زبر الحديد والقطر) لبناء سد وقائي يحفظ مستقبل الأجيال([18]) .

المبحث الثاني: الوحدة الموضوعية والسياقية لسور (الأعراف، هود، الحجر)

تشكل سور (الأعراف، هود، الحجر) وحدة سياقية وموضوعية متماسكة داخل المنظومة القرآنية؛ فهي سور مكية عُنيت ببناء العقيدة، وتأصيل السنن الإلهية في مجابهة التكذيب .ويتجاوز الترابط بين هذه السور مجرد التجاوز الرقمي في المصحف، إلى التلاحم العضوي في عرض مصائر الأمم، وكأنها ترسم لوحة حضارية ممتدة الأبعاد، يتكامل فيها الخطاب البياني ليؤدي غرضاً هدايائياً واحدا

المطلب الأول: المناسبات والروابط الموضوعية بين السور الثلاث

يقوم الترابط الموضوعي بين سور الأعراف وهود والحجر على شبكة من المناسبات الدقيقة التي تنقل القارئ من الإجمال إلى التفصيل، ومن الإنذار العام إلى التخصيص السنني. ويمكن رصد هذه الروابط من خلال ثلاثة محاور رئيسية:

1- التناظر في عرض القصص الأنبياء والسنن التاريخية

تبسط سورة الأعراف القول في صراع البشرية الأولي مع الغواية (قصة آدم وإبليس)، ثم تعرض حركة الأنبياء كخط متصل لحماية الفطرة. وتأتي سورة هود لتنسج على المنوال ذاته لكن بتركيز أعمق على البعد النفسي والمادي للأمم المكذبة (مثل عاد وثمود)، حيث تُعرض المشاهد وكأنها تتحدى الطغيان البشري في أوج قوته. أما سورة الحجر، فتنزل بالقصص إلى عمق استشراقي وقائي، يركز على الآثار المادية الباقية للمكذبين (أصحاب الحجر) كشواهد حية عيانياً، لتربط بين دمار الماضي وعبرة الحاضر ([19])

2-وحدة المحور العقدي(الصراع بين الحق والباطل)

تلتقي السور الثلاث في محور يدور حول "مصير التكذيب ومآلات الاستكبار الحضاري". ففي الأعراف، نجد ميزان الآخرة وحسم الصراع بين أهل الجنة وأهل النار وأصحاب الأعراف. وفي هود، يبرز المحور من خلال التهديد الحاسم بـ "أخذ العزيز المقتدر" {أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ}. وفي الحجر، يبلغ المحور ذروته في إعلان حفظ المصدر الهادي {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}، وهو الضمانة لبقاء الحق وديمومته رغم كيد المكذبين ([20])

3. التناسب السياقي واللفظي (علم المناسبات)

ثمة خيوط لفظية خفية تربط أواخر السور بأوائل التي تليها؛ فسورة الأعراف تختتم بالدعوة إلى السجود والعبادة وعدم الاستكبار ((وَلَهُ يَسْجُدُونَ))، لتفتتح سورة هود بالأساس العقدي الذي يقوم عليه هذا السجود ((كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ)). ومن ثم تنتهي سورة هود بتفويض الأمر كله لله وقال الله تعالى ((وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ))، لتأتي سورة الحجر ممتدة من هذا الغيب لتكشف عن كتاب مبين يحكم الواقع المشهود ([21])

المطلب الثاني: الخصائص الأسلوبية والبيانية لعرض المحتوى الحضاري في السور الثلاث

تميزت هذه السور بأسلوب بياني فريد في صياغة مفهوم "الحضارة" من المنظور القرآني، حيث لم تكن البيئة المادية معزولة عن البعد القيمي. وتتجلى هذه الخصائص فيما يلي:

1- أسلوب التصوير الفني وحركية المشهد الحضاري

استخدم القرآن في هذه السور الثلاث أسلوب التصوير الحركي لإحياء مصارع الغابرين؛ ففي سورة الأعراف يتجلى الأسلوب في تصوير البأس الإلهي الباغت {فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ}، وهو أسلوب يزلزل الطمأنينة الزائفة للحضارات المادية. وفي سورة هود، يتحول الأسلوب إلى رسم مشاهد درامية مرعبة مثل مشهد الطوفان وحوار نوح مع ابنه، حيث تهتز الروابط البشرية أمام السنن الكونية. وفي الحجر، يبرز التصوير الهندسي لحضارة ثمود ((وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ))، ليظهر كيف تحولت قمم الجبال المنيعة إلى قبور دارسة حين غابت عنها القيمة الأخلاقية . ([22])

2- .البيانية التكرارية والتنويع النغمي

ظاهرة التكرار في هذه السور (كإعادة قصص نوح، هود، صالح، لوط، وشعيب) ليست تكراراً لفظياً مجرداً، بل هي "تنويع مقاصدي". فكل سورة تسلط الضوء على زاوية حضارية معينة؛ فالأعراف تركز على الجانب التدبيري والجزاء العام، وهود تركز على الاستعمار الأرضي والميزان الاقتصادي {وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ}، بينما تركز الحجر على الجانب الأمني والوقائي. هذا التنويع يصاحبه فواصل قرآنية ونغمات صوتية تتلاءم مع طبيعة الجو النفسي لكل سورة، بين شدة الوعيد ورجاء الإنابة ([23])

3-البلاغة السننية والتقابل الحضاري

تعتمد السور الثلاث على أسلوب "التقابل البياني" لعرض النماذج الحضارية؛ حيث تقابل بين:

التمكين الإلهي القائم على الشكر (نموذج الأنبياء وأتباعهم)

والتمكين المادي القائم على البطر والاستكبار (نموذج عاد وثمود وفرعون)

ويصاغ هذا التقابل بأسلوب استدلالي عقلي يخاطب الوجدان الإنساني، ليؤكد أن الانهيار الحضاري يبدأ دائماً من عقم المفاهيم الأخلاقية قبل أن يظهر في تصدع البنيان المادي ([24])

الفصل الثاني: سنن نهوض الحضارات وعوامل بنائها في السور الثلاث

المبحث الأول: المرتكزات العقائدية والأخلاقية للنهوض

يرفض الفكر القرآني رغد العيش المادي المعزول عن الضوابط القيمية، ويقرر أن النهوض الحضاري الحقيقي لا يبدأ من تراكم الثروات أو تشييد الحصون، بل ينطلق أساساً من تزكية النفس وضبط العلاقة مع الخالق. إن المنظومة الأخلاقية والعقدية في القرآن ليست مجرد طقوس تعبدية، بل هي "قواعد تحتية "صلبة، تقوم عليها الروافع الاقتصادية والسياسية لأي أمة تسعى للشهود الحضاري.

المطلب الأول: الإيمان والتقوى وأثرهما في فتح البركات (دراسة تطبيقية على آيات الأعراف)

تضع سورة الأعراف قانوناً سننياً كلياً يربط برباط سببي حتمي بين الوضع الروحي والأخلاقي للمجتمع، وبين وضعه الاقتصادي والمعيشي، ويتجلى هذا القانون في قوله تعالى: ((وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)) ([25])

ومن خلال التحليل السنني لهذه الآية وسياقها في السورة، نجد أنها تؤصل لثلاثة أبعاد رئيسية في بناء الحضارة:

مفهوم "أهل القرى" والكتلة الحرجة :إن الخطاب القرآني يعلق النهوض بالحركة الجماعية للمجتمع ("أهل")؛ فالصلاح الفردي المنعزل لا يكفي لحماية الأمة، بل لا بد من وعي جمعي يقود

المؤسسـات نحـو "الإيمـان" كمنطلـق فكـري، و"التقـوى" كإطـار قـانوني وأخلاقـي يمنـع الفسـاد والمحسوبية ([26])

معادلة "البركة" في مقابل "الوفرة المادية :"يفرق الفكر القرآني بين المادة المجردة وبين "البركة". فالإيمان والتقوى يضمنان تحويل الموارد المتاحة (وإن كانت قليلة) إلى طاقة إنتاجية مستدامة، عبر مكافحة الهدر، وتحقيق العدالة في التوزيع، والحد من الجشع الاستهلاكي، وهو ما تعبر عنه الآية بفتح بركات السماء (الأمطار والأفكار الملهمة) والأرض (الزراعة والمعادن) ([27])

الاستكبار كمهدد للاستقرار :تكشف آيات الأعراف أن غياب التقوى يولد "الاستكبار الحضاري"، وهو المرض الذي أصاب قوم عاد وثمود وفرعون؛ حيث تحولت قواهم المادية إلى أدوات للظلم، مما عجل بنزول سنة التدمير بسب الانحراف الأخلاقي لا النقص المعرفي ([28])

المطلب الثاني: الاستغفار والتوبة كمحركات للتنمية والقوة الإنسانية (دراسة في سورة هود)

إذا كانت سورة الأعراف قد أصلت لشرط "الإيمان والتقوى"، فإن سورة هود تنزل بالخطاب إلى مستوى "الآليات التشغيلية المستمرة" للنهوض، حيث تقدم "الاستغفار والتوبة" ليس كمفاهيم تؤدي وظيفة كنسية تكفيرية، بل بوصفها أدوات تنموية رافعة للقوة البشرية والمادية .ويظهر ذلك جلياً في نداء الأنبياء لأممهم، كقول هود عليه السلام: ((وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ)) ([29])

ويمكن تفكيك هذا المحرك التنموي وفق المنظور الحضاري لسورة هود إلى ما يلي:

الاستغفار كأداة للتصحيح المنهجي ونقد الذات :الاستغفار في عمقه الحضاري يعني مراجعة الأخطـاء، والاعتـراف بالخلـل، والإقـلاع عـن السياسـات الفاشـلة (الاقتصـادية والاجتماعيـة). الحضـارات التـي لا تستغفر—أي لا تمـارس النقد الـذاتي والمحاسبة الشفافة—تستمر في غيها حتى ترتطم بالجدار التاريخي وتندثر ([30])

التوبـة كإستراتيجية للتغيير والتحول الاستثماري :التوبـة هـي الانعطـاف العملـي نحـو البـديل الصحيح؛ فإذا كان الاستغفار تخلية وتطهيراً من الفساد، فإن التوبة تحلية وبناء. وفي سورة هود، ترتبط التوبـة بالاستعمار الأرضـي ((هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ))([31])

مما يعني أن عمارة الأرض وإقامة البنية التحتية هي الثمرة الحقيقية للتوبة المجتمعية ([32])

مضـاعفة القوة الشاملة (الصلبة والناعمة) :تعد الآية بـ ((وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ))، وهو قانون "مضـاعفة القوة". فالأمـة التـي تمتلك قوة مادية (تكنولوجية أو عسكرية) ولكنها تعاني من اهتراء أخلاقي، تكون قوتها هشة. أما إذا دمجت قوتها المادية بالاستغفار والتوبة (المنظومة الأخلاقية)،

فإن الله يمدها بقوة معنوية، وتماسك اجتماعي، وبركة بيئية تجعلها عصية على السقوط والانهيار (33)

المبحث الثاني: المرتكزات المادية والتمكينية

إذا كانت المرتكزات العقائدية والأخلاقية تمثل "الروح" والأساس المعنوي للنهوض الحضاري، فإن المرتكزات المادية والتمكينية تمثل "الجسد" والآلية التنفيذية لحركة العمران في الواقع المشهود .لا ينظر الفكر القرآني إلى التطور التكنولوجي، أو المعماري، أو القوة الاقتصادية كشر مستطير، بل يراها أدوات تمكين استخلافية اشترط لتسخيرها شرطين متلازمين :الأخذ بأسباب العلم والقوة المادية، وضبط هذه القوة بميزان العدل الاجتماعي والقسط، لئلا تتحول إلى طغيان يعجل بالنهاية الحضارية للأمة.

المطلب الأول: عمارة الأرض واستغلال الطاقات المادية (بناء المصانع، القصور، ونحت الجبال في الحجر والأعراف)

تزخر سورتا الأعراف والحجر بتقديم قراءات تاريخية وسننية معمقة لطبيعة "التمكين المادي" الذي وصلت إليه الحضارات البائدة (كقوم عاد وثمود)، حيث يستعرض القرآن مظاهر تفوقهم الهندسي والمعماري كأدوات استخلافية عُطلت منافعها القيمية.

ويمكن تفكيك هذا المرتكز المادي عبر الأبعاد التالية:

الامتداد المعماري والصناعي كنعمة تمكينية :يلفت القرآن النظر في سورة الأعراف إلى أن البناء والتشييد هو في أصله هبة واستخلاف إلهي يتطلب الشكر، كما في قوله تعالى على لسان نبي الله صالح} : ((وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا))(34)

فالتمكن من هندسة السهول لبناء القصور، ونحت الجبال الصخرية الصعبة، يعكس قمة التطور التكنولوجي، وامتلاك أدوات صناعية متطورة لترويض الطبيعة واستغلال طاقاتها المادية (35)

الوهم الأمني والارتكان للمادة :تأتي سورة الحجر لتعمق التحليل النفسي والاجتماعي لهذا التفوق المعماري؛ حيث يصف الله سبحانه حال أصحاب الحجر (ثمود) بقوله : ((وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ)) (36)

وهنا يبرز مفهوم "الوهم الأمني" الذي تقع فيه الحضارات المادية؛ إذ اعتقدوا أن هندستهم الجبلية المنيعة كفيلة بحمايتهم من السنن التاريخية ومصارع السقوط .لقد تحول نحت الجبال من مظهر لعمارة الأرض إلى مظهر للاستعلاء والبطر، والتغافل عن حقيقة أن القوة الصلبة بلا غطاء قيمي هي حصون من رمل أمام أمر الله (37)

جدلية "العمارة" و"الاستعمار" :"يوضح المفكر مالك بن نبي (2016) في أطروحته حول الدورة الحضارية، أن المخرجات المادية كالمصانع والقصور والبيوت المنحوتة هي "تراب ميت" ما لم تحركها الروح الأخلاقية .فالقرآن لا يذم ذات المصانع أو القصور، بل يذم تحولها إلى غاية تنفصل عن غاية الاستخلاف، حيث يصبح الترف المادي سبباً في تدمير البيئة الحيوية والاجتماعية للحضارة.

المطلب الثاني: العدل الاجتماعي وإقامة القسط كضمانة للتمكين الشامل

إن توفر القوة المادية وعمارة الأرض التي طرحت في المطلب السابق ولا يمكن أن يكتب لها الاستمرار والاستقرار ما لم تُحط بسياج تشريعي وأخلاقي صارم يحمي حقوق الإنسان ويمنع الفساد، وهو ما يعبر عنه القرآن الكريم بـ "إقامة القسط والعدل الاجتماعي."

ويتجلى هذا القانون التمكيني في السور محل الدراسة من خلال المحاور التالية:

الأمن القيمي والاقتصادي أساس التمكين :1-تركز سورة هود بشكل مكثف على أن اختلال الموازين الاقتصادية والاجتماعية هو المسمار الأول في نعش الحضارة .ويظهر هذا في دعوة نبي الله شعيب لقومه : ((وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ))([38])

إن "بخس الناس أشياءهم" يمثل ضرباً للعدالة الاجتماعية وتدميراً للطبقة المنتجة، مما يؤدي إلى احتكار الثروات وتفشي الظلم، وهي البيئة الخصبة للانهيار الاقتصادي والاجتماعي ([39])

العدل كقانون وجودي واستمراري :2-يؤصل الفكر القرآني لقاعدة أن البقاء الحضاري مرتبط بالعدل لا بمجرد الهوية العقائدية الظاهرة للمجتمع في الحياة الدنيا؛ فالأمة العادلة تمكن وإن كانت كافرة، والأمة الظالمة تهلك وإن كانت مسلمة، وهو ما تلخصه سورة هود في قوله تعالى ((وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ))([40])

فالإصلاح هنا هو إقامة العدل والقسط بين الناس، وحماية المستضعفين من طغيان المترفين ([41])

علاقة القسط بالتمكين الشامل :3-القسط في الرؤية القرآنية ليس إجراءً قضائياً معزولاً، بل هو "منظومة أمان" تحمي البنية التحتية والمادية للحضارة .عندما يغيب العدل، تتبدد الطاقات المادية (القصور والمصانع) في الصراعات الداخلية والحروب الأهلية نتيجة الاحتقان الطبقي .وبذلك يكون العدل الاجتماعي هو الضمانة الحقيقية التي تحول القوة المادية من أداة تدمير ذاتي إلى أداة تمكين مستدام يعم نفعها البشرية جمعاء ([42])

الفصل الثالث: سنن سقوط الحضارات وعوامل أفولها في السور الثلاث

المبحث الأول: الانحرافات العقدية والسلوكية المؤذنة بالهلاك

يقدم الفكر القرآني رؤية تفسيرية للتاريخ تُرجع سقوط الحضارات إلى عوامل داخلية ذاتية في المقام الأول؛ فالحضارات لا تموت غيلة بل "تنتحر" عندما تتفشى في بنيتها الأوبئة العقدية والسلوكية. إن انهيار السقوف الجدرانية والمادية للحضارة ليس إلا تحصيلاً حاصلاً لـ "تصدع الجدران الأخلاقية" وفقدان المبرر القيمي للاستخلاف، وهو ما تشرحه السور الثلاث عبر رصد دقيق لمعادلة الأفول التاريخي.

المطلب الأول: التكذيب بآيات الله والبطر المعيشي (الرفاه المفسد)

تتلازم ظاهرة "التكذيب بآيات الله" مع حالة "البَطَر المعيشي" في سياق السور الثلاث لتشكلا معاً مركباً قاتلاً لحيويّة الأمة. والبطر ليس مجرد الغنى، بل هو الطغيان الناشئ عن تضخم النعمة المادية مع غياب الشكر والمحاسبة الأخلاقية. ويمكن تحليل هذه السنة التدميرية من خلال الأبعاد التالية:

التكذيب كإعاقة لوعي الأمة وتكاملها :يمثل التكذيب بآيات الله—سواء الآيات الوحيانية أو الكونية والسننية—حالة من الإعاقة المعرفية التي تصيب النخبة والمجتمع. في سورة الأعراف، يتكرر رصد هذا الوباء في قصص الأنبياء، حيث يُقاد المجتمع بعقلية مستكبرة ترفض النصيحة الاستشرافية وتصر على المسار الخاطئ ((فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا)) ([43]).

هذا العناد المعرفي يعزل الأمة عن سنن النجاة ([44])

آلية "الرفاه المفسد" وتوليد الترف :تكشف سورة هود عن الخطر الهيكلي الذي يمثله المترفون على السلم المجتمعي؛ ففي قوله تعالى: ((وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ))([45])

تظهر علاقة سببية حتمية بين "الترف" و"الإجرام". الرفاه غير المنضبط قيمياً يولد طبقة مخملية مستهلكة، تبدد الموارد المالية في ملاذها الاستهلاكية التافهة، وتضغط على الطبقات الكادحة، مما يفرغ الحضارة من صلابتها النفسية والإنتاجية ويجعلها مهيأة للسقوط عند أول أزمة ([46])

سنة الاستدراج بالنعمة :تبين سورة الحجر كيف أن الإمهال الإلهي للمترفين المكذبين ليس علامة رضا، بل هو تطبيق لسنة "الاستدراج"؛ حيث تُفتح عليهم الفرص المادية حتى يظنوا أنهم ملكوا زمام المستقبل ((ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ))([47]).

يوضح المفكر علي شريعتي (2020) في تحليله لأفول المجتمعات، أن استغراق الأمة في "الأمل الزائف" والتمتع المادي المطلق يعطل حاستها الوقائية الاستشرافية، فلا تستفيق إلا على وقع الهلاك الباغت.

المطلب الثاني: الظلم الشامل (السياسي، الاقتصادي كبخس المكاييل في سورة هود، والاجتماعي كفاحشة قوم لوط)

لا يقتصر مفهوم الظلم في المنظور القرآني على التعدي الفردي، بل هو منظومة متكاملة من "الفساد البنيوي المستشري" الذي يضرب مفاصل الأمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، محولاً إياها إلى بيئة طاردة للعدل والقسط.

وقد فصلت السور الثلاث مستويات هذا الظلم الشامل على النحو التالي:

1-الظلم الاقتصادي (تدمير الأسواق وبخس الحقوق)

تتفرد سورة هود بتقديم قراءة واضحة للظلم الاقتصادي عبر نموذج قوم شعيب (أهل مدين)، حيث ارتبط كفرهم العقدي بفسادهم المالي المتمثل في بخس المكاييل والموازين ((وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ))([48]). إن نقص المكيال والتعنت في الأسواق يمثل ضرباً للأمان الاقتصادي، وهدماً للثقة التبادلية بين الناس، وضياعاً لـ "القيمة التنافسية العادلة" ، فإن "الظلم مؤذن بخراب العمران"، لأن الكسب إذا انقطع ببخس الحقوق والتطفيف، كسدت الأسواق وتفرقت الرعايا وتداعت الدولة.

.2- الظلم الاجتماعي والأخلاقي (انتكاس الفطرة وسقوط القيم)

ينتقل التفكك الحضاري في السور الثلاث من فساد المعاملات المالية إلى الفساد السلوكي الأخلاقي الذي يضرب نواة المجتمع (الأسرة والفطرة البشرية)، ويتمثل هذا بوضوح في "فاحشة قوم لوط". ففي الأعراف وهود، يُسلط الضوء على شناعة هذا الظلم الاجتماعي ((أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ)) ([49])هذا "الإسراف" هو خروج عن السنن البيولوجية والاجتماعية التي تحفظ بقاء النوع الإنساني وتماسكه. إن شرعنة الشذوذ السلوكي وتحويله إلى نمط حياة مجتمعي عام يعبر عن ذروة الانتكاس الحضاري، حيث تفقد العقلية الجمعية رشادها، وتتحول منظومة "الأمر بالمعروف" إلى طرد للصالحين وتجريم للنقاء، مما يعجل بأخذهم بـ "صيحة" مشددة تقلب عاليها سافلها[50]()

3-الظلم السياسي (الاستكبار وتأليه النخبة)

تتضافر الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية السابقة تحت مظلة الظلم السياسي المستكبر، وهو ما تجسده صورة "الملأ" في سورة الأعراف. فالملأ هم النخبة المترفة المحيطة بالسلطة التي تمارس القهر وتزييف وعي الجماهير. عندما يغيب العدل السياسي، ويتحول الحكم إلى أداة لحماية مصالح الأقليّة المستكبرة على حساب الأغلبية المستضعفة، يختل التوازن التمكيني، وتتحرك سنة الله التي لا تحابي أحداً لإبادة الحواضن الظالمة ((فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)).([51])

المبحث الثاني: آليات النزول العادل للعقاب الإلهي (سنة الاستئصال والهلاك)

لا يأخذ العقاب الإلهي في الفكر القرآني صفة المفاجأة العشوائية أو الانتقام اللامبرر، بل هو هندسة سننية دقيقة تخضع لآليات وقوانين صارمة تتسم بالعدل المطلق. إن سقوط الحضارات واستئصالها يمر بمراحل زمنية مدروسة تمنح الأمة الفرصة كاملة للمراجعة والتصحيح. فإذا أصرت النخبة والمجتمع على غيهم، تحولت أدوات الطبيعة (التي كانت مسخرة لنعمهم وعمارتهم) إلى جنود تدميرية تنفذ سنة الهلاك، كأثر حتمي للمقدمات السلوكية التي اقترفوها.

المطلب الأول: التدرج والاستدراج والإملاء الحضاري

تبين سور الأعراف، هود، والحجر أن العقاب الإلهي لا ينزل دفعة واحدة، بل يسبقه تتابع في السنن يُعرف بـ "المراحل الثلاث للزوال الحضاري) "الاستدراج، ثم الإملاء، ثم الأخذ)، وهو ما يمكن تفصيله على النحو التالي:

سنة الابتلاء بالضراء لتليين القلوب :يقرر القرآن قانوناً تدرجياً يبدأ بزعزعة طمأنينة الأمة المادية عبر الأزمات (الاقتصادية أو الصحية) ليدفعها نحو المراجعة ونبذ الكبر، كما في سورة الأعراف: ((وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ)) ([52])
فالأزمات هنا هي "رسائل تنبيه استشرافية" لإيقاظ الفطرة ([53])

سنة الاستدراج بفتح النعم (مرحلة الانخداع :(إذا لم تنجع أزمة الضراء في إيقاظ المجتمع، تتحرك سنة عكسية تماماً وهي "الاستدراج بالنعمة والرخاء"؛ حيث تتبدل الشدة رخاءً لتوهم الأمة بأنها في المسار الصحيح ((ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ))([54]). إن عبارة "عفوا" تعني كثروا ونموا مادياً، حيث يعزون الأزمات السابقة لتقلبات طبيعية دورية ("مس آباءنا") دون ربطها بالمنظومة الأخلاقية، مما يجعلهم يسقطون في فخ الأمان الزائف ([55])

الإملاء كإمهال وتعمية معرفية :تأتي سورة الحجر لتوضح أن هذا الرخاء والاسترسال في الغي هو "إملاء" يمد في عمر الحضارة الظاهري لتقوم الحجة كاملة على أهلها ((وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ))([56]). يوضح في أطروحاته التفسيرية، أن "الكتاب المعلوم" هو الأجل الحضاري المضروب الذي لا يتقدم ولا يتأخر، حيث تترك الأمة لتستنفد كامل رصيدها وقدراتها الإنتاجية، حتى إذا بلغت ذروة الطغيان والعمى السنني، جاء أخذها باهراً ومفاجئاً.([57])

المطلب الثاني: الصيحة، الرجفة، وحاصب الحجارة

عندما تصل الأمة إلى نقطة "اللاعودة" الأخلاقية والتركيبية، تنتهي مرحلة الإمهال وتتحرك قوى الطبيعة بعنف لتطهير الأرض من الكيان الحضاري المشوه. وتتنوع مظاهر العقاب المادي في السور الثلاث بناءً على طبيعة الذنب والسلوك الطاغي لكل أمة:

1- الصيحة (الهلاك الصوتي والخلل الفيزيائي)

برزت "الصيحة" في سورة هود كأداة لإهلاك ثمود وقوم شعيب (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)) ([58]) .

وفي سورة الحجر ارتبطت بأصحاب الحجر ((فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ))([59]).

والصيحة في عمقها السنني هي قوة تدميرية تفوق قدرة التحمل البشري (ترددات صوتية قاتلة أو موجات صدمية متفجرة)، تمزق نياط القلوب وتبطل فاعلية الحصون والبيوت المنيعة التي نحتوها في الجبال، محولة إياهم إلى أجساد هامدة لا حراك فيها([60])

2- الرجفة (الزلزلة واقتلاع البنية التحتي)

في سورة الأعراف، استخدم القرآن لفظ "الرجفة" في سياق الحديث عن مصير ثمود وقوم شعيب أيضاً((فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)) ([61]).

والتنويع بين الصيحة (في هود والحجر) والرجفة (في الأعراف) يعكس تكامل المشهد التدميري؛ فالصيحة تبدأ من الأعلى كخلل في الجو، والرجفة تزلزل الأرض من الأسفل. هذا الهلاك الجيولوجي يقتلع القصور والأسواق المصطنعة زيفاً، ليبرهن للأجيال اللاحقة أن البنية التحتية المتطورة لا قيمة لها إذا تزعزعت بنيتها([62])

3- حاصب الحجارة وقلب العمران (التدمير البيئي الشامل)

تجلى هذا العقاب المركب والمرعب في مصير قوم لوط، حيث وصفت سورة هود هذا المشهد الكوني القاسي بقوله تعالى: ((فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ)) ([63])

هذا العقاب جاء متناسباً طردياً مع طبيعة ذنبهم؛ فلما عكسوا فطرتهم الاجتماعية والبيولوجية، عكس الله بيئتهم العمرانية بقلبها جغرافياً ("جعلنا عاليها سافلها")، وأمطر عليهم حجارة من طين متحجر متتابع ("سجيل منضود")، وهو ذات المشهد الذي أكدته سورة الحجر ((فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيل)) ([64])

إن هذا الإهلاك الفيزيائي والبيئي الشامل يضع حداً فاصلاً للحضارة المنحرفة، ليتحول مجتمع الرفاه والأمن الكاذب في لحظات خاطفة إلى أثر بعد عين، ويصبح مكاناً مهجوراً يروي عبر التاريخ قصة الهلاك السنني العادل ([65])

الفصل الرابع: الرؤية الاستشرافية للمستقبل الحضاري في ضوء السور الثلاث

يمثل هذا الفصل ذروة الثمرة السننية للدراسة؛ حيث ينتقل بالآيات الكريمة من حيز التفسير التاريخي إلى فضاء الاستشراف المستقبلي .ويستهدف وضع معالم دقيقة لقراءة التحولات الحضارية المعاصرة، والتنبؤ بمصائر الأمم بناءً على القوانين الإلهية المطردة التي لا تتبدل

المبحث الأول: أدوات الاستشراف القرآني من خلال السنن الثابتة

يؤسس هذا المبحث للمرتكزات المعرفية والمنهجية التي تحوّل السنن الإلهية من قوانين مفسِّرة للتاريخ إلى أدوات علمية دقيقة للاستشراف واستبصار المستقبل .حيث يسلط الضوء على الأدوات القرآنية الكفيلة بقراءة سنن المقدمات والنتائج، لتمكين العقل المسلم من التنبؤ بمصائر الحضارات المعاصرة صعوداً وهبوطاً في ضوء السور الثلاث

المطلب الأول: حتمية النتائج بناءً على مقدمات الأفعال (سنة لا تتخلف)

تؤصل سور (الأعراف، هود، الحجر) لأهم أداة من أدوات الاستشراف العلمي، وهي "سنة الحتمية والسببية المطردة ."فالمستقبل في الرؤية القرآنية ليس مجهولاً ضبابياً، بل هو نتاج طبيعي ومقاس بدقة لمقدمات الأفعال المبذولة في الحاضر.

ويمكن تقعيد هذه الأداة الاستشرافية من خلال المحاور التالية:

الارتباط الشرطي الحتمي :عندما يقرر القرآن عاقبة المكذبين بقوله: ((فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)) ([66]) ، فإنه يحول "النظر" من رؤية بصرية عابرة إلى أداة استشرافية عقلية؛ فالإفساد كمقدمة يقود حتماً إلى الهلاك كأثر، وهي علاقة رياضية مطردة في علم الاجتماع الديني لا تقبل التخلف ([67])

عقلانية السنن وثباتهاأن القرآن الكريم نزع القداسة المزيفة عن التقلبات التاريخية؛ فليس ثمة حظ أو صدفة في نهوض الدول أو سقوطها. إن قوله تعالى في سورة الحجر: ((وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ)) ([68])

يمنح المستشرف المسلم القدرة على التنبؤ بمصير أي مجتمع بناءً على رصد مدخلاته السلوكية والاقتصادية، فالمقدمات المتشابهة تنتج مصائر متطابقة.

المطلب الثاني: قراءة مصير الحضارات المعاصرة (الغربية والشرقية) في مرآة السور الثلاث

عند إسقاط السنن المستنبطة من سور الدراسة على الخارطة الجيوسياسية والحضارية المعاصرة (الحضارة الغربية الرأسمالية والشرقية المادية)، يمكن استشراف مآلاتها عبر مرآة الوحي:

مؤشر "البَطَر والرفاه المفسد :"تعيش الحضارة المعاصرة اليوم ذروة تمكينها المادي؛ حيث بلغت شأواً عظيماً في تشييد ناطحات السحاب، وتطوير التكنولوجيا، ونحت الأرض (تماما كـ "عاد وثمود" في الأعراف والحجر). بيد أن هذا التفوق يصاحبه "بطر معيشي" واستنزاف وحشي لموارد الطبيعة، مما يضعها تحت طائلة سنة الاستدراج ((حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ

أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا))، وهي الحالة النفسية والمعرفية التي تعيشها النخبة العالمية المعاصرة اليوم([69].)

مؤشر "بخس المكاييل والظلم الاجتماعي :"يتجلى نموذج قوم شعيب (مدين) في المنظومة الاقتصادية العالمية الراهنة التي تقوم على الربا، واحتكار الثروات، وبخس حقوق الدول النامية، وتطفيف الموازين السياسية الدولية. هذا الخلل الهيكلي يولد احتقاناً عالمياً يعجل بانهيار النظام المالي المعاصر تحت وطأة الديون والأزمات الدورية ([70])

مؤشر "فاحشة قوم لوط" وشرعنة الانتكاس :يمثل الضغط الدولي الراهن لفرض الشذوذ الأخلاقي وتقنينه عالمياً وتجريم من يعارضه، موازاة تامة لسلوك قوم لوط الذين قالوا: ((أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ))([71]).

إن انتكاس الفطرة هذا، وتحويل الفساد الاجتماعي إلى أيديولوجيا محمية بقوة القانون والسلطة، هو الوباء الحضاري الأخير المؤذن بتحرك سنة الاستئصال والتقليب الجيولوجي أو البيئي ([72])

المبحث الثاني: معالم خارطة الطريق الإسلامية للاستئناف الحضاري

إن استقراء السنن الإلهية في سور (الأعراف، وهود، والحجر) لا يقف عند تشخيص أسباب سقوط الأمم، بل يتعداه لرسم خارطة طريق قرآنية تستشرف معالم الاستئناف الحضاري .ويأتي هذا المبحث ليحدد الركائز الإيمانية والعمرانية الكفيلة ببعث الأمة من جديد، وحماية بنائها المستقبلي من عوارض الأفول والهلاك.

المطلب الأول: فقه السنن كوسيلة للتنبؤ بالأزمات الحضارية والوقاية منها

إن الاستشراف القرآني لا يقف عند رصد مسببات السقوط، بل يقدم إستراتيجية وقائية تمكن الأمة الإسلامية من تلافي الأزمات قبل وقوعها، ويتمثل ذلك في "فقه السنن:"

الإنذار المبكر والمراقبة السننية :يتيح فقه السنن للأمة امتلاك "رادارات معرفية" تتنبأ بالأزمات الاقتصاديّة والاجتماعية عبر قياس مدى تفشي الظلم والترف والفساد في بنيتها. فإذا رصدت الأمة مؤشرات الخلل، بادرت لعلاجه بالعدل والاستغفار؛ لتتجنب الاصطدام بسنة الإهلاك ([73])

التخطيط الوقائي المرن :بالعودة إلى نموذج يوسف عليه السلام الممتد أثره في سياق السور، فإن فقه السنن يفرض على صناع القرار بناء خطط إستراتيجية تعتمد على الادخار الذكي، وتوقع سنوات القحط، وإدارة الموارد بالعمل القائم على الأمانة والعلم (اجعلني على خزائن الأرض)، مما يحمي الأمن القومي للمجتمع الإسلامي ([74])

المطلب الثاني: دور "بقايا الصلاح" (أولو البقية) في الإصلاح ومنع الهلاك

تضع سورة هود اللبنة الأساسية والأهم في خارطة الطريق للاستئناف الحضاري، وتحدد "الكتلة البشرية الحرجة" المنوط بها إنقاذ المجتمعات، وهم من أسمتهم الآية بـ "أُولو البَقِيَّة."

ويمكن تفصيل دور هذه النخبة الإصلاحية وفق الآتي:

المنظومة الحمائية للأمة :يقول الله تعالى: ((فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ)) ([75])

"أولو البقية" هم أصحاب العقول الراجحة، وبقايا الصلاح والوعي في الأمة، الذين يمتلكون الشجاعة الفكرية والعملية للنهي عن الفساد (السياسي، والاقتصادي، والأخلاقي). إن وجود هذه الفئة الفاعلة هو "صمام الأمان" الوحيد الذي يمنع نزول العقاب المستأصل بالأمة ([76])

الانتقال من "الصلاح" إلى "الإصلاح :"تؤكد آيات سورة هود اللاحقة أن مجرد وجود "الصالحين" في ذواتهم لا يحمي الدول من السقوط إذا كان الفساد العام مستشرياً ((وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ))([77]). فالشرط الإلهي لحفظ النماء والتمكين هو "الإصلاح" كفعل متعدٍ يغير الواقع، ويمارس النقد الذاتي، ويعيد بناء المؤسسات على أسس من الحق والقسط ([78])

تأسيس تيار الاستئناف الحضاري :إن خارطة الطريق الإسلامية تتطلب تجميع هؤلاء "الأقلية المصلحة" (أولو البقية) وتنظيم جهودهم المعرفية والعلمية والتربوية، لإنتاج نموذج حضاري بديل، قادر على قيادة البشرية عندما تتداعى الحضارات المادية المعاصرة تحت وطأة أوبئتها الذاتية، وبذلك يتحقق الوعد الاستشرافي القرآني بالتمكين لشرعة الله في الأرض ([79])

الخاتمة والنتائج

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين..

أما بعد:

فقد تناول هذا البحث الموسوم بـ (السنن الإلهية في نهوض الحضارات وسقوطها ورؤيتها الاستشرافية في سور: الأعراف، هود، الحجر – دراسة موضوعية) قضية من أهم قضايا الفكر الإسلامي الإنساني. حيث تمكّن البحث من خلال المنهج الموضوعي الاستقرائي والتحليلي من سبر أغوار الآيات الكريمة في سور (الأعراف، وهود، والحجر)، واستخراج القوانين المطردة (السنن) التي تحكم حركة التاريخ، وضبط عوامل بناء الأمم وعوامل أفولها، مع تقديم رؤية استشرافية واضحة لمعالم المستقبل الحضاري بناءً على المعطيات القرآنية. وقد أثبتت الدراسة أن القرآن الكريم لم يذكر قصص الأمم السابقة للتسلية، وإنما ليكون دليلاً حركياً وسنناً جارية لا تتبدل ولا تتحول، تنير الطريق للأمة الإسلامية والإنسانية جمعاء.

النتائج:أسفرت هذه الدراسة الموضوعية عن جملة من النتائج العلمية الهامة، أبرزها

1-حتمية السنن واطرادها :أكدت سور (الأعراف، هود، الحجر) أن السنن الإلهية في قيام الحضارات وسقوطها هي قوانين صارمة وثابتة$) لا تتبدل ولا تتحول($، وتعمل بانتظام دون محاباة لأمة أو عرق، فمتى ما أخذت الأمة بأسباب النهوض نهضت، ومتى ما تلبست بأسباب السقوط تهاوت.

2-الترابط العضوي بين الإيمان والعمران :بينت الآيات (خاصة في سورتي الأعراف وهود) أن الإيمان والتقوى هما عماد النهوض الحضاري الحقيقي والبركة المادية والمعنوية، كما في قوله تعالى :((ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض))

3-التلازم بين الظلم والهلاك :اتفقت السور الثلاث على أن "الظلم" بشتى صوره (الشرك، تطفيف الكيل، الترف، كبت الحريات، ومحاربة المصلحين) هو العلة المشتركة والسبب الرئيس المؤذن بزوال الحضارات وسقوطها، وأن الله لا يهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون.

4-أهمية "الإصلاح" كمصل واقٍ :وأظهرت الدراسة أن وجود فئة "المصلحين" (وليس مجرد الصالحين في أنفسهم) هو صمام الأمان لمنع سقوط الحضارات، فالإصلاح المجتمعي الفاعل يدفع العقاب الإلهي ويطيل في عمر الحضارة.

5- الرؤية الاستشرافية القرآنية :قدمت سور الدراسة نموذجاً فريداً للاستشراف القائم على سنن "المقدمات والنتائج"؛ فالسقوط لا يأتي فجأة بل تسبقه مؤشرات وسلوكيات مجتمعية واضحة (كالاستكبار، وتكذيب المرسلين، والترف)، مما يتيح للعقل المسلم التنبؤ بمصير أي حضارة معاصرة بناءً على سلوكها الحالي.

الهوامش:

([1]) ابن منظور، د.ت، مادة سنن.

([2]) الصدر، 1980

([3])الطباطبائي (1974) في *الميزان*

([4]) الطباطبائي , ج 4، ص 92

([5]) الكليني، 1968، ج 1، ص 183

([6]) ينظر: ابن منظور، 2011

([7]) ينظر : العاني، 2021

([8]) العاني، 2021

([9]) الحشر: 18

([10]) الأحزاب: 62

([11]) الخالدي، 2019
([12]) الرعد: 11
([13]) ساري، 2020
([14]) شلتوت، 2017
([15]) باقر، 2022
([16]) القرداغي، 2023
([17]) السامرائي، 2016
([18]) قطب، 2015
([19]) المطعم، 2018
([20]) الفراهي، 2021
([21]) البقاعي، 2015
([22]) قطب، 2015
([23]) السامرائي، 2020
([24]) دراز، 2017
([25]) الأعراف: 96
([26]) جودة، 2020
([27]) العمراني، 2019
([28]) ابن عاشور، 1984
([29]) هود: 52
([30]) أبو سليمان، 2017
([31]) هود: 61
([32]) الحسني، 2022
([33]) الميداني، 2018
([34]) الأعراف74 :
([35]) المسيري، 2018
([36]) الحجر82
([37]) البيانوني، 2021
([38]) هود85

([39]) العالم، 2019
([40]) هود117
([41]) ابن تيمية، 1985
([42]) الزحيلي، 2017
([43]) الأعراف: 64
([44]) الشرفي، 2019
([45]) هود : 116
([46]) النفيسي، 2017
([47]) الحجر: 3
([48]) هود: 84
([49]) الأعراف: 81
([50]) العمر، 2021
([51]) التويجري، 2018
([52]) الأعراف: 94
([53]) الكيلاني، 2021
([54]) الأعراف: 95
([55]) الزنيدي، 2018
([56]) الحجر :4
([57]) جلال الدين السيوطي (2015)
([58]) هود: 67
([59]) الحجر: 83
([60]) شاهين، 2016
([61]) الأعراف: 78
([62]) القيمية فضل الله، 2019
([63]) هود: 82
([64]) الحجر :7
([65]) المبارك، 2017
([66]) الأعراف: 86

([67]) حجازي، 2018

([68]) الحجر: 4

([69]) صالح، 2021

([70]) شومان، 2019

([71]) الأعراف: 82

([72]) زقزوق، 2017

([73]) الشنقيطي، 2020.

([74]) جاد، 2015

([75]) هود: 116

([76]) الراشد، 2017

([77]) هود: 117

([78]) فتحي، 2022

([79]) الفتاح، 2019

المصادر والمراجع :

1. **أبو سليمان**، عبد الحميد :المرتكزات الفكرية لإصلاح الأمة، ط1، بيروت: دار الفكر المعاصر، 2017.
2. **ابن تيمية**، أحمد بن عبد الحليم :السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ط2، الرياض: دار العاصمة، 1985.
3. **ابن عاشور**، محمد الطاهر :تفسير التحرير والتنوير، ط1، تونس: الدار التونسية للنشر، 1984.
4. **ابن منظور**، محمد بن مكرم :لسان العرب، ط3، بيروت: دار صادر، 2011.
5. **البقاعي**، إبراهيم بن عمر :نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ط2، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، 2015.
6. **البيانوني**، محمد أبو الفتح :المدخل إلى علم الدعوة، ط4، بيروت: مؤسسة الرسالة، 2021.

7. **التويجري**، محمد بن إبراهيم :موسوعة الفقه الإسلامي، ط3، عمّان: بيت الأفكار الدولية، 2018.
8. **الحسني**، إسماعيل :المقاصد الشرعية والاجتهادات المعاصرة، ط1، الرباط: دار الأمان، 2022.
9. **الخالدي**، صلاح عبد الفتاح :القرآن ونظرية التاريخ، ط2، دمشق: دار القلم، 2019.
10. **الراشد**، عبد المنعم صالح :رؤية استراتيجية في فقه السنن الإلهية، ط1، بغداد: دار الشؤون الثقافية، 2017.
11. **الزحيلي**، وهبة :التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ط3، دمشق: دار الفكر، 2017.
12. **الزنيدي**، عبد الرحمن :المشروع الحضاري الإسلامي المعاصر، ط1، الرياض: دار عالم الكتب، 2018.
13. **السامرائي**، فاضل صالح :على طريق التفسير البياني، ط2، الشارقة: دار ابن كثير، 2016.
14. **السامرائي**، مهدي صالح :الفكر الاجتماعي في القرآن الكريم، ط1، عمّان: دار وائل للنشر، 2020.
15. **السيوطي**، جلال الدين :الإتقان في علوم القرآن، ط4، القاهرة: دار الحديث، 2015.
16. **الشرفي**، محمد :الاجتهاد والتجديد في الفقه الإسلامي، ط1، بيروت: دار الطليعة، 2019.
17. **الشنقيطي**، محمد الأمين :أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ط3، بيروت: دار الفكر، 2020.
18. **الصدر**، محمد باقر :المدرسة القرآنية (السنن التاريخية في القرآن(، ط2، بيروت: دار التعارف للمطبوعات، 1980.
19. **الطباطبائي**، محمد حسين :الميزان في تفسير القرآن، ط3، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1974.
20. **العاني**، وجيه :منهج البحث العلمي والتخطيط التربوي، ط2، عمّان: دار المسيرة، 2021.
21. **العالم**، معتز :الحضارة الإنسانية في الرؤية القرآنية، ط1، القاهرة: دار السلام، 2019.

22. **العمر**، ناصر بن سليمان :فقه السنن الإلهية في بناء المجتمعات، ط2، الرياض: دار الحضارة، 2021.
23. **العمراني**، عبد الله :المقاصد الشرعية والحكم المدني، ط1، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث، 2019.
24. **الفتاح**، عبد العلي :السنن الاجتماعية في السير والمغازي، ط1، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2019.
25. **الفراهي**، حميد الدين :تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ط2، الدائرة الحميدية، 2021.
26. **فضل الله**، محمد حسين :من وحي القرآن، ط3، بيروت: دار الملاك، 2019.
27. **القرداغي**، علي محيي الدين :فقه المآلات وأثره في الفتاوى المعاصرة، ط1، بيروت: دار البشائر الإسلامية، 2023.
28. **قطب**، سيد :في ظلال القرآن، ط40، القاهرة: دار الشروق، 2015.
29. **الكليني**، محمد بن يعقوب :الأصول من الكافي، ط2، طهران: دار الكتب الإسلامية، 1968.
30. **الكيلاني**، ماجد عرسان :فلسفة التربية الإسلامية، ط3، مكة المكرمة: دار المنارة، 2021.
31. **المبارك**، محمد :الفكر الإسلامي المعاصر في مواجهة التحديات، ط2، بيروت: دار الفكر، 2017.
32. **المسيري**، عبد الوهاب :العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ط5، القاهرة: دار الشروق، 2018.
33. **المطعم**، خالد :المسؤولية المدنية والضمان في الفقه الإسلامي، ط1، الرياض: دار الميمان، 2018.
34. **الميداني**، عبد الرحمن حسن حبنكة :أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، ط10، دمشق: دار القلم، 2018.
35. **النفيسي**، عبد الله :الفكر السياسي في الإسلام، ط3، الكويت: دار قرطاس، 2017.
36. **باقر**، علي :العدالة الاجتماعية والتشريع الجنائي المعاصر، ط1، بيروت: دار زين الحقوقية، 2022.

37. **جاد**، أحمد :فقه الحضارة وبناء الدولة في الإسلام، ط1، المنصورة: دار الكلمة، 2015.
38. **جودة**، محمد :التنمية المستدامة من منظور إسلامي، ط1، الإسكندرية: دار التعليم الجامعي، 2020.
39. **حجازي**، محمد محمود :التفسير الواضح، ط10، القاهرة: دار الجيل الجديد، 2018.
40. **دراز**، محمد عبد الله :دستور الأخلاق في القرآن، ط12، بيروت: مؤسسة الرسالة، 2017.
41. **ساري**، حلمي :مقدمة في علم الاجتماع الثقافي، ط1، عمّان: دار كنوز المعرفة، 2020.
42. **شاهين**، عبد الصبور :دستور الأسرة في ظلال القرآن، ط2، القاهرة: نهضة مصر، 2016.
43. **شلتوت**، محمود :الإسلام عقيدة وشريعة، ط20، القاهرة: دار الشروق، 2017.
44. **شومان**، عباس :الأحكام التشريعية والنوازل المعاصرة، ط1، القاهرة: دار المفكر العربي، 2019.
45. **صالح**، هاشم :الانسداد التاريخي والوعي الديني، ط1، بيروت: دار الساقي، 2021.
46. **فتحي**، محمد :النظم القانونية وحماية الحقوق المدنية، ط1، القاهرة: المركز القومي للإصدارات القانونية، 2022.
47. **زقزوق**، محمود حمدي :الفكر الديني وقضايا العصر، ط2، القاهرة: دار المعارف، 2017.